سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تطريز

فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي

حفظه الله تعالى

شرح

القواعد الأربع

للعلامة

عبد العزيز بن عبد الله ابن باز

المتوفى سنة ١٤٢٠ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

[السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنا، وأشهد أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فهذا هو **الدرس السادس والعشرون** من برنامج **الدرس الواحد السادس**، والكتاب المقروء فيه هو: «شرح القواعد الأربع» للعلامة عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مُقدمتين اثنتين:

المقدمة الأولىٰ: التعريف بالمصنِّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصَد الأوَّل: جرُّ نَسَبِه، وهو الشَّيخ العلامة القدوة عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرَّحمٰن بن باز، يُكنىٰ بأبي عبد الله، ويعرف بابن باز نسبةً إلىٰ أحد أجداده، لُقِّب بمفتي البلاد وبشيخ الإسلام.

المقصَد الثَّاني: تاريخُ مولده، وُلد في الثَّاني عشر من شهر ذي الحِجَّة سنة ثلاثين بعد الثَّلاثمائة والألف (١٣٣٠).

المقصَدُ الثَّالث: تاريخ وفاته، توفّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السَّابع والعشرين من محرَّم الحرام سنة عشرين بعد الأربعمائة والألف (١٤٢٠)، وله من العمر تسعون (٩٠) سنة، فـرَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة.

المقدمة الثانية: التعريف بالمصنَّف؛ وتنتظم في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: تحقيق عنوانه؛ ...

المقصد الثاني: بيان موضوعه؛ ...

المقصد الثَّالث: توضيح منهجه؛ ...

مقدمة الشيخ عبد العزيز ابن باز للقواعد الأربع

بسم الله، والحمد لله، وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه.

أما بعد؛ فهذه القواعد الأربع نبه عليها المؤلف رحمة الله عليه، وهي قواعد مهمّة، فمن عقلها وفهمها جيدا فهم دين المشركي، وفهم دين المسلمين، وأغلب الخلق لا يفهم هذه القواعد؛ ولهذا التبست عليهم الأمور، فعبدوا القبور وأصحاب القبور والأولياء والأشجار والأحجار من دون الله، وهم يحسبون أنهم علىٰ شيء لجهلهم بحقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك.

ومؤلف هذه القواعد هو الشيخ الإمام محمّد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، المجدّد لما اندرس من معالم الإسلام في هذه الجزيرة في النِّصف الثاني من القرن الثاني عشر المتوفىٰ سنة ستٍّ ومائتين وألف، من الهجرة النبوية.

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ: أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ. وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ: أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ. وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ).

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجمع في مقدمته هذه بين الإفادة وبين الدُّعاء للطالب، وهذا من النصح أن يدعو للطالب بالتوفيق ويفيده، ولا شك أنّ الطالب إذا قبل الله هذا الدعاء في حقه سعد.

قوله: (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ) فإن هؤلاء الخصال الثلاث خصال عنوان السعادة، إذا حرص المؤمن علىٰ هذه الخصال فقد تمت سعادته، فهو يشكر الله علىٰ ما أعطاه بفعل أوامره وترك نواهيه، (وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ) وتاب إلىٰ الله هذا هو شأن المؤمن. (إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ) ولهذا يقول ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**».

وهذا هو الواجب علىٰ المؤمن أن يشكر الله عند الرخاء وعند النعم من الصحة والعافية، ونعمة الإسلام ونعمة الأولاد، ونعمة المال إلىٰ غير هذا، فهو يشكر الله عليها بطاعة أمره، وترك نهيه، هذا هو الشُّكر، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ:١٣] يعني: يُطيع أوامره، وينتهي عن نواهيه، ويصرف النعم في طاعة المولىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعند البلاوي من المرض، أو موت الولد، أو القريب ونحو ذلك يصبر ويحتسب، ولا يجزع، يتحمل، فلا يضرب خدًّا ولا يشق جيبا، ولا يدعو بدعوىٰ الجاهلية، ولا يتكلم بفُحش؛ بل يتحمل ويصبر، وعند الذنوب يبادر بالتوبة والاستغفار] [١]

---

(١) سقط من الملف الصوتي.

.... «**وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**».

فهذا في حق مقابلة العطية بالشكر، ومقابلة البلية بالصبر، وأما في حق مقابلة الذنوب بالاستغفار، فلذلك دلائل كثار منها: قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ فإن العبد إذا أذنب فتاب أحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا أحبه الله عَزَّوَجَلَّ كان في ذلك سعادته.

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لَا تُسَمَّىٰ صَلاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ= عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ [وَيُنَجِّيكَ] مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ.

فإذا عرف المؤمن أن التوحيد إذا دخله الشرك أفسده، كما يفسد الحدث الطهارة، عرف أنه لابد من معرفة التوحيد علىٰ حقيقته، والشرك علىٰ حقيقته حتىٰ لا يقع في الشرك فيبطل توحيده ودينه؛ لأن التوحيد هو دين الله وهو الإسلام، وهو الهُدىٰ، فإذا فعل شيئًا من أنواع الشرك بطل هذا الإسلام، فبطل هذا الدين، كأنه يدعو الأموات ويستغيث بهم، ويسب الدين ويسب الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويستهزئ بالله ورسوله، ويستهزئ بالدِّين، ويعتقد حل ما حرم الله مما هو معلوم من الدِّين بالضرورة كالزنىٰ وأشباهه، فإذا أتىٰ بشيء من هذه النواقض بطل إسلامه، كما أن من أتىٰ بناقض من نواقض الطّهارة من ريح أو بول أو غائط بطلت طهارته، وهكذا توحيده وإسلامه، إذا فعل شيئًا من نواقضه بطل هذا التوحيد وهذا الإسلام، فمن جحد وجوب الصلاة كفر، ومن جحد تحريم الزنىٰ كفر، ومن استغاث بالموتىٰ ونذر لهم كفر، وهكذا.

وممّا يبين حقيقة الدين: أن تتعلم هذه القواعد التي جاءت في كتاب الله، فإذا درستها وتأملتها اتضح لك الأمر أكثر.

قصد الشَّارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إلىٰ بيان عظيم أثر الشِّرك، وسوء عاقبته، وتبع المُصَنِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في تشبيه إفساده دين العبد بإفساد الحدث للطّهارة، فكما أنَّ الحدث إذا طرأ علىٰ الإنسان أفسد طهارته الحسية، فإن الشرك إذا طرأ علىٰ العبد أفسد طهارته المعنوية، وكما يخرُج العبد من طهارة حسِّه بحدثٍ من الأحداث المعروفة عند الفقهاء؛ فإنه يخرج بطهارة قلبه إذا وقع في الشِّرك، فإنَّ الشرك يُنجِّس القلوب كما يتنجس الإنسان بحدثٍ يطلع عليه، وكما يكون واجبًا عليه أن يتطهر من الحدث الذي طرأ

عليه كي يكون طاهرًا إذا أراد الشروع في عبادةٍ تجب لها الطهارة؛ فإنه يجب عليه أن يتطهر من نجاسة الشِّرك، وتعظُم هذه الطَّهارة فوق طهارة الحدث في أن طهارة الحدث تتعلَّق ببعض العمل، وأمّا الطهارة من الشرك فإنها تتعلق بكل العمل، فإنَّ الإنسان إذا صلىٰ علىٰ غير طهارة، أو مس المُصحف علىٰ غير طهارة، فإنه يكون قد أخلَّ بصلاته وتعظيمِه المُصحف، أما إذا تنجَّس بنجاسة الشِّرك فإنه يُخلُّ بعمله كله فإن الله لا يقبل أعمال المُشركين، وهذا يُبيِّن عظيم الحاجة إلىٰ هذه «القواعد الأربع»؛ لأن من تبيَّنت له هذه القواعد وفهمها كما ينبغي أثمر ذلك في نفسِه الاحتراز من الشرك، والمباعدة له، والخوف من الوقوع فيه، وإذا جهل العبد هذه القواعد الأربع ثبتت عليه أمور التوحيد والشرك، ولم يكن وازع الردع عن الشرك في قلبه القيام الذي يكون به نجاته.

والاحتراز من الشِّرك ينبغي أن يكون أعظم من الاحتراز من الأحداث والنَّجاسات، وكما يتوقَّىٰ العبد في الظاهر حدثًا ونجاسةً، فإنه يجب عليه أن يتوقَّىٰ في الباطن نجاسة الشِّرك، وقد جاء الشَّرع بالقرْنِ بين الطَّهارتين تنبيهًا علىٰ أن مقصود الشرع تحقيقهما معًا، فإنَّ الإنسان يُشرع له إذا أراد الصلاة أن يتوضَّأ، ويُشرع له أن يقول بعد وضوئه: أشهد ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وهو يُطهِّر بالوضوء حدثَه الظاهر، ويُطهِّر بهذا الذِّكر من توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حدثه الباطن من الشِّرك فيُقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طاهر الباطن والظَّاهر.

الْقَاعِدَةُ الأُولَى:

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

(الْقَاعِدَةُ الأُولَى): أن تعلم أن المشركين الذين قاتلهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابةُ مقرون بتوحيد الربوبية: بأنَّ الله خالقهم ورازقهم ومُدبر أمورهم، وليس عندهم في هذا شك وجُهال المسلمين اليوم يحسبون أن هذا التوحيد يكفي، وهذا من الجهل؛ إذ صار المُشركون أعلم منهم، فإذا أقر أحدهم بالرُّبوبية، وقال: إن الله ربي وخالقي، ورازقي، فإن ذلك لا يكفي، فالمشركون أقرُّوا بذلك يقول تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ويقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١] فالمشركون مُقرون بذلك قال تَعَالَىٰ: (قُل) يا محمد: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]، بما أنكم تعرفون هذا أفلا تتقون الإشراك بالله، وترجِعون إلىٰ التوحيد والحق، فهم يعرفون هذه الأمور، ويقرُّون بها لله ومع هذا لم ينفعهم ذلك، بل قاتلهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنهم ما خصُّوا الله بالعبادة؛ بل أشركوا مع الله اللات والعُزَّىٰ ومناة وأصنامهم الكثيرة.

فالتوحيد: هو صرف العبادة لله وحده، والإيمان بأنه وحده المستحقُّ لها دون ما سواه، ومما يبيِّن لك هذا أن المشركين يقولون: ما دعوناهم وما توجَّهنا إليهم، كما في القاعدة الثانية إلا لطلب القُربة والشَّفاعة.

بيَّن الشَّارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مضمون القاعدة الأولىٰ من القواعد الأربع؛ وهو: أن الكفار الذين قاتلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يُقرُّون بتوحيد الرُّبوبية، فهم يعتقدون أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق الرازق المدبِّر، وكانوا لا يُنازعون في هذا الإقرار الجُمْلِي، وإن وقع منهم في بعض تفاصيل الربوبية خلافُ هذا الإقرار المُجمل كاعتقادهم في الأنواء والتمائم، فإنَّ هذا مما يتعلق بالربوبية؛ لكن هذه المنازعة عندهم

كانت في التفاصيل، وليس في الأصل الكلِّي، أما في الأصل الكلي، فإنّهم كما استفاض في القرآن ذكره عنهم يُقرُّون بأن الخالق هو الله، وليس منهم من يقول: إنَّ اللات والعزىٰ؛ أحدهما: هو الخالق الرازق؛ بل يُقرون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ربهم وخالقهم ورازقهم، ومع إقرارهم بهذا التَّوحيد في ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه لم ينفعهم هذا الإقرار، ولا كانوا مُسلمين بذلك، بل قاتلهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن المقصود من الأمر والنهي ليس هو الإقرار بالربوبية؛ ولكن مقصود الأمر والنهي هو الإقرار بالألوهية، وهي الباب الذي ضلَّ فيه المشركون الأُول ثم ضل من ضل فيه من المنتسبين إلىٰ الإسلام في القرون المتأخِّرة.

وقد بين المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في آخر كلامه أن التوحيد هو صرف العبادة لله وحده، والمناسب للوضع اللغوي بكلمة التوحيد: ألا يُفسر التوحيد بالصَّرف، فإن أصل التوحيد في اللسان العربي يُطلق علىٰ التفريد، والموحَّد هو المُفرَد، والواحد هو الفرد.

وقد ذكرنا فيما سبق أن التوحيد يُعرف باعتبارين اثنين:

أحدهما: المعنىٰ العام؛ ويُراد به إفراد الله بحقوقه، وحقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي ثَبتت له باستقراء القرآن والسنة هي ثلاثة حقوق:

أولها: حق الرُّبوبية.

وثانيها: حق الألوهية.

وثالثها: حق الأسماء والصِّفات.

فيكون التَّوحيد بالاعتبار العام شاملًا لإفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها.

والثاني: الاعتبار الخاص، ومعناه: إفراد الله بالعبادة، وهذا هو أكثر ما يُطلق عند ما يُراد ويُطلق عند ذكر التوحيد في القرآن والسنة.

فإذا أُطلق التوحيد في القرآن والسنة بالمصدر أو بالفعل، فإنما يُراد به توحيد العبادة؛ لأنه أصل الأصول وأهم المهمات؛ ولأن غيره من أنواع التوحيد التي هي حقوقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راجعةٌ إليه، ومنطويةٌ فيه.

الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس:١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

يعني ما قصدنا أنهم يخلقون أو يرزقون أو يُدبِّرون الأمور أو يحيون الموتىٰ، فإن ذلك كُله لله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قصدناهم ليشفعوا لنا ليقربونا إلىٰ الله زُلفىٰ؛ لأنهم أحسنُ منا، فهُم أصحاب دينٍ ولهم طاعات، ولهم أعمال صالحات، ولهذا نعبدُهم وندعوهم ونستغيث بهم ليقربونا إلىٰ الله وليشفعوا لنا، كما قال جَلَّوَعَلَا عنهم في سورة الزمر: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] يعني أنهم لم يعبدوا الأنبياء والصَّالحين إلا ليقربوهم إلىٰ الله زُلفىٰ قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر]، وقد سماهم الله في هذه الآية بالكذبة، والكفرة، فهذا يدل علىٰ أن عبادتهم إياهم لطلب التقريب أنه كفرٌ وردة وإن لم يقولوا: أنهم يخلقون ويرزقون، فإن كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم، وينذرون لهم ويذبحون لهم بقصد القُربة وأنهم يشفعون لهم، فهذا هو الكفر الذي فعله المشركون الأولون، ولهذا سمَّاهم كذَبة وكفرة،

لأنهم كذبوا بقولهم: أنهم يقربونا إلىٰ الله، وكفروا بهذا العمل، يقول سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

فأقروا بأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر، وأنهم يشفعون لهم، ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

ويقول تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر]، فهذا الشرك أبطل حصول الشفاعة لهم، ولم ينفعهم؛ بل ضرهم، وإنما الذي ينفعهم هو التوبة إلىٰ الله، والاستقامة علىٰ التوحيد وعبادة الله وحده والبُعد عن الإشراك كما هو معنىٰ: «لا إله إلَّا الله» يعني يخصون الله بالعبادة، والدعاء والخوف والرجاء، والذَّبح، والنذر، ولا يُشركون مع الله أحدًا لا نبيًّا مُرسلًا، ولا ملكًا مُقرَّبًا، ولا جِنِّيًّا، ولا غير ذلك فهذا هو دين الله.

فإن التوحيد والدين والإسلام هو: صرف العبادة لله وحده، وعدم صرْفها لغيره، ولو زعم أن ذلك الغير لا يخلُق ولا يرزق، ومن صرف له عبادة من العبادات فقد كفَر، وإن اعتقد أنَّ ذلك المعبود ولا يخلق ولا يرزق فإن المشركين قد اعتقدوا هذا فهم يعلمون أن معبوداتهم لا تخلُق ولا ترزق، وأنها فقيرة، ومملوكة، فلم يعذرهم الله بذلك؛ بل كفرهم بطلبهم الشفاعة من غير الله وصرفهم العبادة لغيره.

فالحاصل أنَّ دعاءهم غير الله واستغاثتهم بغير الله، وصرفَهم بعض العبادات لغير الله يجعل العبد مُشركًا، وإن أقرّ بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، وإن أقر أن معبوداتهم لا تنفع ولا تضر؛ ولكنه يريد شفاعتهم، أو يريد أن يقربوه، فهذا لا يخلِّصه من الشرك، فالذي يعبد البدوي، أو يعبد الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو يعبد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو يعبد صنمًا أو جنِّيًا، ويقول: إنه يعتقد أنه يقرِّبه، ولا يعتقد أنه يخلق أو يرزُق، فإنه يُبيِّن له أن هذا هو الشِّرك الأكبر، وأن هذا هو دين المشركين الذي كانوا عليه يقول تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فالواجب عليه أن يحذر هذا الدين أي دين المشركين بالتوبة النصوح والإقلاع عن هذا الشرك، وتعليم من لم يفقه ذلك من إخوانه وعشيرته، وأهل بيته ويكون عنده نشاطٌ في تلك الدعوة، ويحرص كذلك علىٰ تفهيمهم أنّ قولهم: أن الآلهة التي عبدوها لم يقصدوها لنفعها أو لضرها، وإنّما قصدوها لشفاعتها وتقريبها، فإنَّ هذا هو الشرك الأكبر؛ لكونهم قصدُوا تقريبها إلىٰ الله وشفاعتها عنده فصرفُوا لها العبادة، فهذا هو الشرك الأكبر.

بعد أن حقق الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعًا للمصنِّف أنَّ المشركين الأولين كانوا لا يعتقدون فيما اتخذوه من الآلهة أنها تخلق وترزُق، حقَّق في هذه القاعدة الثانية: أنَّ أولئك المُشركين لم يكونوا يسألون تلك الآلهة خلقًا ولا رِزْقًا، ولا حياةً ولا نشورًا؛ بل كانوا يتوجَّهون بسؤال هذه المطالب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنهم يعلمون أنه هو الخالق الرّازق المدبر المالك، وإنّما كان مقصودُهم من سؤال هؤلاء شيئين اثنين:

أحدهما: طلب تقريب آلهتهم لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا قالوا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]).

وثانيهما: طلبوا شفاعة هذه الآلهة لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ كما قالوا: (﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]) ولما كان اتخاذهم لهذه الآلهة باطلًا، عاقبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بضد قصدهم، فلم يحصل مقصود التقريب، ولا مقصود الشفاعة، فأبطلوا الله مقصود التقريب بقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [غافر].

فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّ هؤلاء الدَّاعين لهذه الآلهة أن تُقرِّبهم إلىٰ الله لا يحصل مقصودُهم لأن هذه الآلهة لا تستجيب لدعائهم، إلىٰ يوم القيامة؛ بل هذه الآلهة عاجزة عن ذلك الدعاء، وأبطل مقصودَهم بطلب الشفاعة بقوله تَعَالَىٰ: (﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر]) فلا تحصُل لهم هذه الشّفاعة التي رجَوْها من هذه الآلهة؛ لأن هذه الآلهة ليس لها مقامٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولأنهم سألوها ما لا تملك، فإنَّ الشفاعة مُلكُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تَعَالَىٰ: (﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]) وإنما تُسأل الشفاعة ممن يأذن الله له بوقوعها منه، فإنما تُسأل الشفاعة في الآخرة من الأنبياء، ولا تُسأل من آحاد الخلْق في الكرب الأعظم؛ بل يتوجه الناس في الآخرة إلىٰ الأنبياء، إذا علاهم حرُّ الشمس وألجمهم العرق، ويبتدئون بآدم حتىٰ ينتهوا بمحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسألوهم أن يشفعوا لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمقصود: أن هؤلاء ما توجهوا إلىٰ الآلهة إلا لأجل طلب القُربىٰ والشفاعة، وما توجَّهوا لأجل أن تخلُق لهم وأن ترزقهم وأن تُدبِّر أمرهم، ثم كان من عقوبتهم عدم تحقُّق مقصودهم، لأن ما يُبنىٰ علىٰ الباطل باطل.

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال:٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت].

وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ.

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

تمَّت. وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعلىٰ آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

القاعدة الثالثة والرابعة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر في أناس مُتفرقين في عبادتهم، هذه هي القاعدة الثالثة، وذكر بعدها الرابعة من القواعد الأربع التي من عقَلها وفهمها جيدًا عقل دين المشركين، وعقل دين المرسلين، وعرف الفرق بينهما: وهي القواعد المهمة الواضحة التي بين فيها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة الشرك، وما عليه المشركون، وأوضح فيها حقيقة ما دعا إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أرشد إليه، وما بعثه الله به، فمن عقل هذه القواعد الأربع، كما ينبغي كان علىٰ بصيرة، ومعرفة بدين الرسل، وقد تقدمت القاعدة الأولىٰ في بيان أنهم مُقرُّون بتوحيد الربوبية، وأنهم لا ينكرون أن الله هو الخالق الرازق، المدبر المحي، المميت، الرزاق للعباد، يعرفون هذا، ولهذا أقروا به لما سئلوا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] كما تقدم.

وبين في القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القُربة والشفاعة، يعني أنهم ما توجهوا إليهم يعتقدون فيهم الخلق والرزق، فهم يعلمون أن الخلاق الرزاق هو الله، ولكنهم عبدوهم بقصد شفاعتهم وتقريبهم إلىٰ الله يقول تَعَالَىٰ علىٰ لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وهذا هو شركهم يقولون: إننا دعوناهم وتوجهنا إليهم ليقربونا إلىٰ الله، وليشفعوا لنا عند الله، والله هو الرازق الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما شرك المشركين المتأخرين فشركهم دائم في الرخاء والشدة، فهم يُشركون مع الله الأنبياء وغيرهم، وبعضهم أشرك في الربوبية واعتقد أن بعض المشايخ وبعض الصالحين يتصرَّف في الكون، ويتصرف في الناس، وهذا من سخافة العقول وضلالها، فصاروا أسفه من المشركين الأولين، وأقلّ عقلًا،وأعظم شركًا.

تقدم تفصيل الشفاعة، وأن الشفاعة شفاعتان:

شفاعة مرضية؛ وهي: التي يأذن الله بها، ويرضاها كشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الموقف حتىٰ يقضي بينهم بإذنه سبحانه، وشفاعته في أهل التوحيد حتىٰ يدخلوا الجنة بإذنه ورضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وشفاعة باطلة؛ وهي الشفاعة التي يطلبها المشركون من غير الله كالأنبياء، أو الصالحين، أو الملائكة، أو الجن، أو من الأشجار، وهي شفاعة باطلة، قال الله تَعَالَىٰ فيها: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر]، ويقول تَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر]، وهذه شفاعةٌ باطلةٌ، لأنهم طلبوها من غير الله وتوسلوا إليها بالشرك فصارت باطلة.

ثم ذكر في القاعدة الثالثة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر في أُناس شركهم متنوِّع:

فمنهم من يعبد الأنبياء.

ومنهم من يعبد الملائكة.

ومنهم من يعبد الصالحين.

ومنهم من يعبد الجن.

ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار.

ومنه من يعبد الشمس والقمر.

فقاتلهم جميعًا، وقاتلهم الصحابة، ولم يفرِّقوا بينهم، وذكر الآيات الدالة على ذلك مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران].

فجعل عبادة الملائكة والأنبياء كُفرٌ، وذكر في قصة عيسى والنصارى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة].

وذكر في الأشجار والأحجار والصالحين: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم].

واللات: رجل صالح، ومناة: حجر، والعُزى: شجرة، فقاتلهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلهم الصحابة، ولم يفرقوا بينهم، فالشرك واحد، وإن تنوع المعبودون كالذي يعبد الشمس، أو القمر، أو الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، أو النجوم، أو غيرهم، فكلهم مشركون يقول تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر]، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ﴾ [الحج:٣٤]، فمن خالف هذه الآيات، وما جاء في معناها فقد أشرك سواءٌ فعل ذلك مع الأنبياء أو مع الصالحين، أو مع الملائكة، أو مع الجن، أو مع النجوم، أو مع الشمس، أو مع القمر، أو غير ذلك، ولهذا أنزل الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني الشرك: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، فالشرك يُطلق عليه فتنة كما في قوله تَعَالَى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٣٩] يعني حتى لا يقع شرك بالله، ويكون الدين كله لله، فالاختلاف يُسمى فتنة والمعاصي تُسمى فتنة،ولكن المقصود في هذه الآية هي فتنة الشرك بالله؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٧] يعني الشرك.

فدل ذلك علىٰ أن الواجب علىٰ ولاة الأمور أن يُقاتلوا عُبّاد غير الله مُطلقًا كائنًا من كان إذا دُعوا إلىٰ الله وأُرشدوا، فإن لم يقبلوا وجب قتالهم مع القُدرة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال:٣٩]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف].

ومما يتعلق بعبادة الأحجار والأشجار حديث أبي واقد الليثي لما خرجوا إلىٰ حُنين، وكانوا حُدثاء عهد بالكفر مروا علىٰ أناسٍ من المشركين يعبدون سدرةٍ، ويعظمونها، ويُعلقون عليها السلاح، يقولون: إنه إذا عُلق عليها يكون أمضىٰ وأقوىٰ، فقال المسلمون: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الله أكبر إنها السُّنن، قلتم والذي نفسي بيده! كما قال بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾** [الأعراف:١٣٨]» الحديث رواه الترمذي وصححه.

فجعل طلب إيجاد شجرة تعبد، مثل قول بني إسرائيل: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فإذا قال: نريد شجرة نعبدها أو حجرًا نعبده، أو قبرًا نعبده نعلق عليه السلاح، ندعوه، نستغيث به، ننذر له، فهو مثل قول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وهذه قاعدة عظيمة مع القاعدتين السابقتين.

ثم أوضح في القاعدة الرابعة: أن شرك الأولين أخف من شرك المتأخرين، فشركُ المتأخرين أعظمُ وأقبحُ، فالأولون شركُهم كان في الرخاء، ويُخلصون في الشِّدة أما هؤلاء المشركون في غالب البلدان، فشركهم دائمٌ في الرخاء والشدة كعُبَّاد البدوي، وعُبَّاد الحسين، وعُبَّاد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وغيرهم فالواجب الحذر من شرك المشركين في الشدة والرخاء دقيقه وجليله.

ومما يدل علىٰ أن شرك المشركين في الرخاء دون الشِّدة قوله تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾

[العنكبوت:٦٥] يعني الباخرة أو السفينة: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥] يعني أنهم كانوا إذا ركبوا البحر وخافوا أن يغرقوا في البحر، أو تغرق سفنهم، دعوا الله مخلصين له العبادة، فإذا نجاهم إلىٰ البر وسَلموا عادوا إلىٰ الشرك يقول جَلَّوَعَلَا في آية أخرىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء:٦٧] وهكذا في الآية: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢] هكذا حال المشركين عند الشدائد، يخلصون لله العبادة، ويعلمون أنَّه يُنجي وأنه لا إله غيره، وإذا جاء الرخاء، وقعوا في الشِّرك مع آلهتهم وأصنامهم، أما هؤلاء المشركون في هذا الوقت فشركهم دائم فلا بصيرة عندهم، فيعبدون غير الله في الرخاء، نسأل الله العافية والسلامة، وفق الله الجميع.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

أعاد الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بيان المعنىٰ المنتظم في القاعدتين الأوليين من أنَّ المشركين كانوا يعتقدون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق الرَّازق المدبِّر، وأنهم كانوا اتّخذوا تلك المعبودات لا لسؤالها الخلق والرزق والتدبير، وإنما لطلب القُربىٰ والشّفاعة.

ثم بيَّن أن القاعدة الثالثة: فيها بيانُ أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج علىٰ قومٍ تتباين أديانهم: فمنهم من يدعو الأنبياء، ومنهم من يدعو الملائكة، ومنهم من يدعو الأشجار، ومنهم من يدعو الأحجار، ومنهم من يدعو النجوم، ومنهم من يدعو الشمس، ومنهم من يدعو القمر، فقاتلهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفّرهم جميعًا، وبذلك التنبيه إلىٰ أنَّ الشرك لا يُلاحظ فيه المعبود أهو ملكٌ أو نبيٌّ أو رسولٌ أو شجرٌ أو حجر، وإنما يلاحظ فيه صرْفُ العبادة، فمن صرف عبادةً لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه قد وقع في الشّرك، ولو صرفها إلىٰ نبيٍّ أو رسولٍ أو ملكٍ أو رجل صالح أو شجر أو حجر أو شمس أو قمرٍ، أو غير ذلك.

ثم بعد أن بيَّن الشَّارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن أصحاب هذه العبادات المعبودات المتنوعة هم جميعًا في الحكم سواء، وكلهم كفار وأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتلهم= بيَّن المعنىٰ الذي ذكره المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في القاعدة الرابعة، وهي التنبيه علىٰ الفرق بين شِرك المتقدمين وشِرك المتأخرين.

فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أن المشركين الأُوَل كانوا يُشركون في الرخاء، ويوحِّدون في الشدة، وأما متأخروا المشركين فإنهم يُشركون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الرخاء والشِّدة.

وذكر إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «كشف الشبهات» فرقًا ثانيًا: وهو أنَّ المشركين الأولين كانوا

يدعون نبيًّا أو ملكًا، أو رجلًا صالحًا، أو شجرًا، أو حجرًا، وأمّا المشركون المتأخِّرون، فإنهم يدعون أُناسًا منسبوين إلىٰ الفسق والظُّلم، والجَوْر، وأكل أموال الناس بالباطل، كشمسان، ويوسف، وتاج ممن كانوا في زمانه، وكثيرٍ ممن يُدعىٰ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند مُشركي المتأخرين، هو من أهل الفسوق والفجور والظلم، ليس من أهل الصلاح، أو ممن لا يُنسب بصلاحٍ ولا شر، كما كان عليه شرك الأولين، فهذان فرقان موجودان في كلام إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وألحقنا بهما فيما سلف خمسة فروق: فانتظمت فروقًا سبعًا بين شرك الأولين، وشرك المتأخرين.

وقد بيناها بيانًا واضحًا في التَّقرير علىٰ «**شرح القواعد الأربع**» للعلامة ابن فوزان حفظه الله، وذلك في الدرس الواحد الخامس.

وشرح الشيخ صالح أوضح عبارةً وأتمُّ بيانًا من شرح العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنَّ الشيخ صالح حفظه الله قد فصَّل في مسائل هذا الكتاب، وبين جُمله بيانًا أوفىٰ من بيان الشّارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

فيُنصح بمراجعة ذلك الشرح مع التقريرات عليه، وذلك في الأشرطة المسجّلة لبرنامج الدرس الواحد الخامس.

وهذا آخر التّقرير علىٰ هذا الكتاب النافع الذي يحتاج الإنسان دائمًا إلىٰ تكرار القراءة فيه، وفيما كان من جنسه من مسائل التوحيد، ولا يستغني الإنسان إذا حضر شرحًا لأحد هذه المتون أن يقرأ شرحًا ثانيًا وثالثًا، فإن ذلك أنفع له في ثبوت هذه المعاني ورسوخها بقلبه.